**الزهد وأبعاده في التصور الإسلامي**

**د.عادل سالم عطية**

**باحث أكاديمي**



**الزهد مقام شريف، له طبيعة خاصة في التصور الإسلامي، ليس رهبانية أو عزلة في بطون الجبال والصوامع، بل هو انخراط في المجتمع، ومشاركة في السراء والضراء، فهو يدعو صاحبه أن يكون ذا نظرة خاصة إلى الحياة وظروفها، وإلى المال على كافة صنوفه وأشكاله، كما أنه حركة إيجابية وفعالة في المجتمع عمادها الإعلاء من قيمة العلم والعمل، وقدر القيم الروحية، وتوسط واعتدال بين متطلبات الحياة المادية والروحية، والبعد عن الإسراف في التمتع بالحياة الدنيا.**

**والزاهد الحقيقي هو الذي يفهم أن الدنيا لا تذم لذاتها، وكيف يذم ما من الله تعالى به، وما هو ضرورة في بقاء الآدمي، وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة: من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسجد يصلي فيه، وإنما المذموم -في حقيقة الأمر- هو أخذ الشيء من غير حله أو تناوله على وجه السرف والإفراط لا على مقدار الحاجة والمصلحة، فيصرف النفس فيه بمقتضى رعوناتها لا بإذن الشرع ومقتضى الحكمة الإلهية (1).**

**من أجل هذا يناقش هذا المقال طبيعة الزهد وأبعاده كما عرضها الإمامان البخاري ومسلم، رضي الله عنهما، وكما تصورها مؤلفو مصنفات الزهد كالإمام عبدالله بن المبارك (ت 185هـ)، والإمام أحمد ابن حنبل (ت 241هـ) وغيرهما.**

**إن الزهد في الإسلام له طبيعة ذاتية خاصة، فهو ليس هروبا من الحياة وميادينها المختلفة، فلم يكن الزهد الرهباني من الفضائل التي دعا إليها الإسلام؛ لأن الإسلام في جوهره دين اجتماعي، والزهد الرهباني مناف لروح الحياة الاجتماعية، ولكن الإسلام دعا إلى نوع آخر من الزهد يمكن وصفه بأنه القصد في اللذات والشهوات، وعدم التهالك عليها، أو الإسراف فيها إلى الحد الذي ينسى الإنسان فيه ربه وآخرته (2).**

**ونظرا لأهمية الزهد ومكانته في الإسلام وجدنا حرص الكثيرين من أئمة الدين وسادات العلماء على إفراد هذا الموضوع بالتأليف والتصنيف، وتدوين الآيات والأحاديث والآثار التي تبرز صورة متكاملة للزهد؛ طبيعة وخصائص ومجالات.**

**وقد لاحظت أن الإمامين البخاري ومسلم قد خصصا في صحيحيهما كتابين للزهد والرقائق، وكذلك لم تخل مؤلفات العلماء أصحاب السنن من هذه الأحاديث وتلك الآثار المتنوعة الدالة -في مجملها- على مكانة الزهد في الموروث الإسلامي عند المحدثين.**

**ولقد صدر الإمام البخاري كتاب الرقائق بباب ما جاء في الصحة والفراغ، فأورد قول النبي  " صلى الله عليه وسلم" : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (3). وفي هذا دلالة صريحة على ضرورة استغلال أوقات الفراغ، واغتنام الصحة، واستثمار فترة الشباب في طاعة الله عزوجل، وطاعة الله تتناول -في مفهومها الإسلامي الأصيل- جوانب الحياة كلها، بطولها وعرضها، تتناول كل عمل أو نشاط إنساني مبدع يسهم بدور إيجابي في بناء الحياة الإنسانية، وإرساء دعائم القيم الخلقية الفاضلة، ويدفع عجلة النمو والتقدم من أجل إقامة المجتمع الزاهر المستقر الدعائم، البالغ أقصى درجات الحضارة والازدهار، كما تتناول بحرص دائب، وضمير أخلاقي دافع على تنقية النفس والمجتمع من عوامل الفساد، وبذور الشر (4).**

**وفيما يلي بيان بأبرز أبعاد الزهد في التصور الإسلامي:**

**أ- الجانب الاجتماعي**

**الزهد الحقيقي في المفهوم الإسلامي يكون عن طريق خدمة المحتاجين، والإحسان إلى الأرامل والمساكين واليتامى، وقضاء حوائجهم، والعمل على حل مشكلاتهم المادية والنفسية، وقد ضمن الإسلام لمن يقدم هذا الصنيع جزاء طيبا يكافئ جزاء المجاهد في سبيل الله أو القائم بين يدي الله تعالى لا يفتر، أو الصائم الذي لا يفطر كما في قول النبي  " صلى الله عليه وسلم" : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله -وأحسبه قال- وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر» (5).**

**1- ومن مظاهر المشاركة الحياتية التي أشارت إليها الأحاديث النبوية في مجال الزهد وبابه العناية ببناء المساجد، وفضل القائمين على تأسيسها؛ إذ المساجد لها دور كبير في نشر الثقافة والعلوم، ومنارة للتنوير في أرجاء المجتمع، كما أنها وسيلة حيوية في حل المشكلات للمسلمين، وتقديم الحلول والمقترحات النافعة لمواجهة الأزمات، بالإضافة إلى أنها حلقة وصل أساسية في وحدة المجتمع وانسجامه، والتواصل بين أطيافه المختلفة كما لا يخفى الملمح العقدي الكامن وراء إنشائها. كما أن الزاهد الحقيقي هو الذي يؤدي الصلاة في المساجد، فيحسن عمارتها، فكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة (6).**

**2- مواساة الآخرين في الجنائز، وفي أحزانهم وأتراحهم، والتفكر في اتباع الجنائز، وما مآلها ومصيرها.. وقد التزم الصحابة سلوكا حميدا؛ وهو استحباب خفض الصوت عند الجنائز (7)، وهذه مشاركة إيجابية كيف يصنعها من يعتزل الناس في البراري والصحاري؟ وكذلك تظهر ملامح هذه المشاركة من خلال اختيار جلساء الصدق، فقد تنوعت الآثار في ضرورة اختيار الصديق الذي يذكر بالله، ويرغب في الآخرة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «لا تصاحب إلا مؤمنا» (8).**

**3- تكمن طبيعة الزهد في أن تكون معرضا عما تملك لا أن تكون معرضا عما لا تملك، فليس من شرط الزهد أن يكون -دوما- مقترنا بالفقر، فقد يتفق للإنسان الغنى المادي والزهد معا، ومن الشواهد على ذلك عثمان ابن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وكان -أيضا- الليث بن سعد (175هـ) مع زهده ثريا.**

**وهكذا يتضح أنه بالرجوع إلى سير الصحابة وأخبارهم، وبخاصة الأغنياء منهم نجد أن أموالهم كانت مبذولة في الخير والبر ومعاونة الفقراء، وتجهيز الجيوش، وقضاء مصالح المسلمين وسد حاجاتهم، وقد خلت حياتهم الخاصة من سرف الأغنياء، وتبذير المترفين، وقد وصف عثمان بن عفان  "رضي الله عنه"  بأنه كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت، وأما عبدالرحمن بن عوف فإنه كان يكثر من الصدقة؛ مرضاة لله تعالى (9).**

**إذن ليس الزهد في فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه، ولقد كان سليمان -عليه السلام- في ملكه من الزهاد (10).**

**ب- الجانب العملي**

**الزهد في الحياة الإسلامية لا يمنع العمل، ولا يبرر اليأس، ولا يدعو إلى التواكل الذي يوصي به أهل الجبر المطلق، ألم يكن الصحابة وكثير من أمراء المسلمين زاهدين؟ ومع ذلك كانوا أكثر الناس عملا، وأقواهم أملا في رفعة شأن دينهم وأهله، لقد كان زهدهم هذا زهدا صحيحا؛ لأنه كان يهدف إلى تغليب المصلحة العامة، والنهوض بالمسلمين، لا إلى تثبيط هممهم ليقعدوا بهم مع القاعدين (11). وفيما يلي رسم لعلاقة الزهد بميدان العمل الدنيوي من أجل كسب العيش، وتوفير القوت والاحتياجات الضرورية، وعمل العبادات، وأداء الفرائض والطاعات بشتى صورها وأنماطها المختلفة.**

**1- الدعوة إلى العمل والكسب المشروع، والاشتغال بمهنة أو وظيفة جلبا للرزق، وادخارا للقوت، يقول الله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الجمعة:10)، والأنبياء والرسل -عليهم السلام جميعا- كانوا قدوة للأمم في هذا الباب، فقد عملوا بالزراعة، والنجارة، والتجارة، ورعي الغنم، والحدادة...إلخ، ولذا لا نستبعد وجود هذه النماذج المختلفة والمتنوعة في البيئة الإسلامية، فمثلا نجد صورا واضحة للحديث عن الجهاد والغزو في سبيل الله تعالى، فيقول سعد بن أبي وقاص: «إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله» (12).**

**كما توجد نماذج أخرى منها في التنمية الزراعية وتربية الحدائق وحرثها، فذلكم الرجل الذي يعمل بحديقته، ثم يقسم نتاجها وثمارها على ثلاثة أقسام: قسم لأولاده وعياله وأهل بيته، والثاني للمساكين والمحتاجين، والثالث ينفقه على احتياجات الحديقة من حرث وتهذيب وإصلاح...إلخ.**

**2- وثمة دعوة أخرى للعمل والعبادة وطاعة الله تعالى، فأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها، وإن قل. فالاشتغال بالعبادة، وترويض النفس على الطاعة، وعلو الهمة في أداء العبادات من خصائص الزاهد المسلم؛ لأن الله تعالى يحب العبد التقي، الغني، الخفي. بالإضافة إلى أن الأعمال وسيلة للنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، كما يتضح ذلك من خلال قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار، ثم سد بابه، فلم يستطيعوا الخروج إلا بعد أن توسل كل منهم بعمل صالح قد صنعه يوما ما ابتغاء مرضاة الله تعالى، حتى فرج الله همهم، وأزال كربتهم (13). ولعل هذا مدعاة إلى أن يدخر الإنسان أعماله ويستثمرها في طاعة الله تعالى.**

**3- يلاحظ الأستاذ عباس محمود العقاد أن القرآن الكريم حين يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية يحرم عليه أن يوصد أبواب الحياة الجسدية، وينهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا، وينسى نصيبه منها كما في قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ  وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا  وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ  وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ  إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (القصص:77). فالحياة الروحية في الإسلام تجري على سنن القصد الصالح للحياة البشرية لا استغراق في الجسد، ولا انقطاع عنه في سبيل الآخرة، قوام بين هذا وذاك (14).**

**ج- الجانب العلمي**

**من مظاهر هذا الجانب:**

**1- اقتران الزهد بالتفقه في الدين (15) وفهمه فهما صحيحا، وتحصيل العلوم النافعة، وصدق النية، والتجرد من سلطان الهوى، فقد قيل: «ملاك هذه الأعمال النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله» (16). بل كان الواحد من السلف حريصا على النية حتى في الأكل والنوم (17). والزهد -في حقيقة الأمر- يدل على قوة النفس؛ من أجل التقرب إلى الله عز وجل، وهذا لا يعني هجر اللذات والطيبات، مادام الأمر مرتبطا بالنية الخالصة لله تعالى، فيوصي ابن القيم منبها المرء إلى ضرورة «الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة، فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه، كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات» (18).**

**2- التفكر والتأمل والتدبر خصال محمودة دعا إليها الإسلام، والتزم بها صحابة رسول الله  " صلى الله عليه وسلم" ، فقد قيل: «إن من أفضل العمل الورع والتفكر» (19)، وكانت عبادة أبي الدرداء  "رضي الله عنه"  التفكر والاعتبار (20).**

**د- الجانب السلوكي والأخلاقي**

**ومن مظاهر هذا الجانب:**

**1- يطلب الإسلام من المرء أن يكون نظيفا في ملبسه ومطعمه ومشربه وهيئته، فالزهد -في الحياة الإسلامية- لا يتنافى البتة مع الطهارة والنظافة وحسن المظهر، فالله تعالى جميل يحب الجمال، ومن الصور الدالة على الذوق الرفيع واللياقة الأدبية في التعامل مع الآخرين ما ورد من إشارات النبي  " صلى الله عليه وسلم"  وأفعاله في العطاس والتثاؤب، فقد كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه، وخفض بها صوته، وكان ينهى عن التثاؤب، ويأمر من غلبه التثاؤب أن يمسك بيده على فيه، فقال: «إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل».**

**2- ومن القواعد السلوكية في مجال الإدارة والتخطيط نجد جملة من القواعد التي أشار إليها أئمة الدين كالبخاري ومسلم وغيرهما؛ لبيان أن الأعمال الناجحة إداريا تتبع هذه القواعد: الأمانة في تحمل المسؤولية، الإخلاص في العمل وابتغاء وجه الله عزوجل، البعد عن النفاق والرياء، القناعة برزق الله وفضله، احترام الوقت؛ فإهدار الوقت وقيمته عامل أساس من عوامل التخلف، بينما احترامه هو العنصر الحاسم، في نجاح الأعمال الإدارية وتطور المجتمعات.**

**3- وإذا كان الزهد في الإسلام يدعو إلى الزينة والجمال وحسن المظهر للشخصية المسلمة، فإنه في الوقت ذاته يركز على الجانب الباطني؛ وهو طهارة البدن باطنيا، ونقاء النفس وسريرتها، وذلك لأن الآفات الباطنية مثل الحسد والغيظ والحقد تسبب للإنسان أضرارا نفسية بالغة، فتجده -مثلا- مضطرب البال، قلقا في علاقاته مع الآخرين، مشوش الفكر، غير متزن شعوريا وذهنيا. ومن هنا تتبدى أهمية قول النبي  " صلى الله عليه وسلم"  :«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم».**

**4- الزهد في الحياة الإسلامية يربي الشخصية الإيجابية الفعالة في المجتمع، وذلك لأن الزهد ترك الفضول، وحفظ اللسان، والتكلم بمقدار معين فيما يجلب رضا الله تعالى، ويبعد سخطه، بل إن من شروط الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر أن يكون كلام المرء في الطاعة والخيرات، أو يلزم الصمت والسكون، فمن «كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت» (21)، «والكلمة الطيبة صدقة» (22). ولعل هذا المسلك الأخلاقي يدفع الإنسان إلى التخلي عن قيل وقال، ويحفظ لجيرانه، وزملائه والناس أجمعين حقوقهم، وأسرارهم.**